أعوذ برب الفلق

من شر ما خلق

للكاتب المجهول

صحوت مع الفجر بعد ليلة حمراء ، وهى الليلة التى ولد فيها هذا العام الجديد ، صحوت ظمآن ، ولكنى لم أستسغ الماء ، فقد شعرت أنه ذَوْبٌ من ثلوج الشمال ، وعند ذلك هتفتُ : « أعوذ برب الفلق ، من شر ما خَلَق » !

ولكن ما هو الفَلَق ؟

أهو الصبح ؟

وكيف وما كان ليلى إلا صبحاً فى صبح ؟

هو إذن « واد فى جهنم » ، كما قال بعض المفسرين ، وبالله أعوذ ، فما يدفع شرَّ جهنم غيرُ من خلق جهنم

وجهنم التى أخاف هى الجنية التى أرادت أن تأسرنى إلى آخر الزمان ، بالعقد الذى لا ينقضه الأحرار وهو عقد الزواج

فى عصرية الأمس قال خالها الفرنسي وهو يرانى أضحك معها وألعب :

Je vous souhaite d'être aussi heureux à l'occasion de vos fiançailles que moi durant les 42 anneés de mon mariage.

وقد اعتصر الحزن قلبى فى تلك اللحظة ، لأنى كنت اعتزمت فسخ الخطبة ، بعد أن رأيت أن خطيبتى تنقلنى إلى وطنٍ غير وطنى ، وبعد أن رأيت أن أهلها صاروا أعزَّ علىَّ من أهلى

ومن حالى معها أدركت السر فى أن تحرم الدولة المصرية على سفرائها أن يتزوجوا من أجنبيات

وهل أنسى أنى رفضت المشاركة فى الاحتجاج على ما صنع الفرنسيون فى لبنان ؟

من أجل حبها أبيت أن أكتب حرفاً واحداً في تقبيح ذلك الصنيع ، فقد بدا لى غير قبيح ، لأنه صدَر عن أهل سوزان ، وصدَق شاعرنا العربى حين قال :

ومن بينات الحب أنْ كان أهلها

أحبَّ إلى قلبى وعينىَّ من أهلى

إن الدرس الذى تلقيته عنها يفوق جميع الدروس ، فقد بدأت أومن بأن من يتعلم لغة أجنبية يهاجر عن وطنه بطريقة خفية ، وبدأت أفهم كيف صارت الوطنية شريعة عند الفرنسيس والإنجليز والألمان واليابان

أولئك أقوام لا يعرفون غير لغاتهم ، فهم فى أمان من احتلال الأفكار والآراء

وهل كان من العبث أن يقول جماهير المشرّعين من المسلمين بعدم جواز الصلاة بغير اللغة العربية ؟

من المؤكد أنهم كانوا يعرفون أن الله يقبل الصلاة بأية لغة وبأى صوت ، ومن المؤكد أنهم كانوا يعرفون أن الله يسمع دبيب النمال كما يسمع قعقعة الرعود

فكيف أوجبوا أن تكون الصلاة باللغة العربية ؟

إنهم أرادوا إنشاء قومية لها لغة واحدة ، ودينٌ واحد ، لتأمن احتلال الأفكار والآراء

ذلك درس تلقيته عن خطيبتى ، الخطيبة التى ودعتها عند انتصاف هذا الليل ، وإن لم تتلق منى أى جزاء

قالت ونحن نفترق : لن ترانى بعد هذا الليل !

فقلت : سنلتقى بأقرب مما تظنين ، فلا بد للجمر من وقود ، وأنت الوقود

وما ذا تريد أن تأخذ منى ؟

ألا يكفى أنها صيرتنى أشهر الدعاة لوطنها الغالى . الغالى علىّ وحدى من أجل حبها فما تألم روحها يوم سقوط باريس كما تألم روحى . ولا هفا قلبها على فرنسا الجريحة كما هفا قلبى

وأنا برغم بخلها مُنٌّ على روحها اللطيف ؛ فقد علمتنى كيف أدرك قيمة الصورة التى ساقها شاعرنا العربى حين قال :

تمطيك شيئاً قليلاً وهى خائفة كما يمس بظهر الحية الفَـرِقُ

لن ينقضى عجبى من الفروق بين الأرض والناس

أرض فرنسا هادئة من قديم الزمان ، وهى قليلة التعرض للزلازل والبراكين ، وقد رأيت بعينى كيف جَـلَّدوا عِرقاً نَبض من نهر السين وهم يُمِـرُّون من تحته قطار المترو بوليتان ، فكيف يكون أبناء تلك الأرض الهادئة ثوّاراً ومتقلبين فى أكثر الأزمان ؟

وأرض اليابان معرضة فى كل وقت للزلازل والبراكين ، ومع هذا عُرِف اليابانيون بالقرار والاطمئنان ، على اختلاف الأحداث والأزمان ، فما هذا الذى نرى من الفروق بين الأرض والناس ؟

ولكن كيف عرفتُ أن اليابانيين أهل قرار واطمئنان ؟

كيف عرفت ذلك ولم أزر اليابان ، ولم أعرف من أرضاف أهلها غير أشياء لا تتصل بأعماق النفوس ؟

لو كان لى حظ التعرف بصديقة يابانية لأدركت شيئاً من السريرة اليابانية ، على شرط أن أتكلم لغتها الأصلية

اللغات أنفاس ، فلا تصدقوا من يزعم أنه صافح روح شاعر وهو يقرأ شعره مترجماً إلى إحدى اللغات ، ولا تصدقوا من يتحدث عن بلاد زارها وهو يجهل لغتها كل الجهل أو بعض الجهل ، وإنما نصصت على « بعض الجهل » ليفهم ناس من خلق الله أن الذى لا يتعمق فى لغة من اللغات لا يجوز له أن يقول إنه يعرف تلك اللغة ، فالمعرفة الناقصة أخطر من الجهل لأن الجاهل يقف عند حده فلا يتزيد ولا يستطيل ، أما ناقص المعرفة فقد يوهمه الغرور أنه أعلم العلماء ، فيؤذى نفسه قبل أن يؤذى الناس

وخطيبتى التى فارقتها بالأمس هى إحدى بنّيات لطيفات من اللواتى عرفت فى القاهرة أو فى باريس ، وحالى معها كان عجباً من العجب ، فقد رضيت عنها ورضيت عنى ، مع أن حياتنا سلمت من جميع الأسواء الروحية والوجدانية ، فى زمان لا تأنس فيه روح إلى روح إلا بمعاقرة الأهواء

كان الزواج هو الغاية التى نريد ، وقد كان يجب أن نسارع قبل أن تفضحنا الأقاويل ، فما الذى وقع فى تلك الليلة الحمراء ، وقد سبقته تماهيد ؟

بدا لى أن لجاجة العاطفة وصلت إلى أبعد حدود العنف ، فرأيت أن أستعير خيالاً من العقل الذى عشت به سنين . وهل بقى لى من العقل إلا طيف من خيال ؟

فكرت فيما تمناه لنا خالها العزيز ، وقد عاش اثنين وأربعين عاماً وهو سعيد بالزواج . ثم افترضتُ أن سعادته الزوجية دامت لأنها بُنيت على الهدوء ، والعاطفة الهادئة تَبنى برفق ؛ فالى أتعرض لعاطفة مجنونة الجموح ؟ وكيف أسمح لهذه الجنية بأن تزلزل الخيال الباقى من عقلى !

لقد راعنى بكاؤها فبكيت

قالت بصيغة الاستفهام لا التقرير :

Tout est fini entre nous?

فأجبت بالصمت

ومن قال إنى سأرجع ؟ ومن قال إنى سأراجع ؟

ذلك فراق ، ليس بعده تلاق

لن يؤذينى أن تخرجى من حياتى ، فإنى واثق بأنى سأجد هواى حين أشاء ، وإنما يؤذينى أن أتصور أنك يئست من وفائى ، وأنك صرت يتيمة بعد أن خمدت نيران أشواق ، ولن تخمد نيران أشواق

لن يصلح ما بيننا إلا إن سمعتِ شكواى : هذا الصدر يسير عارياً فى كل يوم ، كسائر صدور النساء فى هذا الجيل ، فكيف يهادن جميع الرجال ، ويحاربنى وحدى ؟ وهذه العيون توجه نظرات وغمزات ، ولا تأسر أحداً ، مع أنها تخاطب جميع الخلائق ، فكيف تأسرنى وحدى ؟

قلبى هو القلب ، وجمالك هو الجمال ، والناس ما عدانا خيال فى خيال

لا تسأليني عن حالى ، فأنت حالى وأحوالى ، وأنت ماضى وحاضرى ومستقبلى ، وأنت ضميرى المركوز فى ضمير الوجود

لن أيأس منك ، ولن تيأسي مني ، ولن يقول قائل إني فارقت هواي في لحظة من لحظات الغضب أو العناد أو العتاب

أنا حاربت فرنسا وهي صحيحة ، وسالمتُها وهي جريحة ، وأنت الخيال الزائر من ذلك البلد المحبوب

لن أشتم بفرنسا مع الشامتين ، ولن أذكرها بغير الجميل ، وإن جانبتِ الجميل

قال الجنرال دي جول : لبنان وديعة في يدي وسأسلّمه لفرنسا

يقول هذا القول وهو مغلوب ، وتلك غاية الغايات في صدق الوطنية ، وأنا أمجّد هذه الوطنية ، وأتمنى مثلها لنفسي

إن الاستعمار من أنصبة الأمم القوية ، فمتى نكون من المستعمرين ، كما كان الآباء والأجداد ؟

آفة الاستعمار هي التسلط الغاشم ، تسلط الحاكم الجاهل الذي يقول كما قال بعض حكام فرنسا في الهند الصينية :

Je suis le maître

ولا بدّ لنا من استعمار نجرّب فيه أخلاقنا السياسية ، وفي السياسة أخلاق ، إذا تولاها عظماء الرجال

والاستعمار لم يَعُد صعباً كما كان قبل أعوام قصار لا طوال ، كان الاستعمار يحتاج إلى جيوش برية وبحرية ، وهو بعد اليوم سيكون في ميدانين اثنين : ميدان الأدب وميدان الاقتصاد ، وسلاح الأدب هو الصدق ، وسلاح الاقتصاد هو الأمانة ، فلنحرص على أن نكون الصادقين الأمناء

أما بعد ، فأنا لا أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، وإنما أعوذ برب الفلق من خير ما خَلق ، وهو الجمال

ومعنى هذا أني سأراجع خطيبتي الغالية ، وهي الفتاة الملثوغة الراء

إنها تحاول أن تنقلني إلى وطنها ، وأنا أحاول أن أنقلها إلى وطني ، وسنرى بعد قليل مَن الغالب ومَن المغلوب

للشّعر في رأسها بريقٌ سرقتْ شعاعه من نيران قلبي

والتموج في خدودها مسروق من تموج أشعاري

وسحر عينيها الزرقاوين منهوبٌ من سحر غيثي الخضراوين

وتبارك الذي تفضّل فجعل لون عيوني مما يهيج الحيات السُّود

سنفترق ؟ سنفترق ؟

هو ذلك إن جاز أن تزهد العيون في الضياء

يابنت فرنسا الغالية ، تذكّري ليالي وأيامي ، وارحمي مَنْ يصعب عليه أن تجرحيه ، وهو الصديق الأوحد لوطنك الجريح

لن نفترق ، لن نفترق ، وهل نستطيع أن نفترق ؟

وإذا أرادت الطبيعة أن نكون خائنَيْن ، فلنكن خائنين ، لنتحرر من مواثيق الجهلاء ، وما هي الطبيعة التي يتحدثون عنها جاهلين ؟

الطبيعة هي الصدق في تلوين ما خلق الله من حقائق الوجود وسيكون هوانا تعبيراً أبديًّا عن ضمير الوجود ... ومقالتي هذه تصويرٌ لمحنة روحية لن تخمد قبل أن تخمد النيران الصوارخ في ضمائر الجبال .

« الغائب المجهول »